

تفسير ابن كثير

وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ
كَلِمَاتُ اللَّهِ ^{قُل} إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

قول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه وجلاله ، وأسمائه الحسنی وصفاته العلا وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد ، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها ، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل : " لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك " ، فقال تعالى : (ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) [أي : ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما ، وجعل البحر مدادا ومده سبعة أبحر] معه ، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقسام ، ونفذ ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مددا . وإنما ذكرت " السبعة " على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر ولا [أن] ثم سبعة أبحر موجودة تحيط بالعالم ، كما يقوله من تلقاه من كلام الإسرائيليين التي لا تصدق ولا تكذب ، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى : (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله

مددا) [الكهف : 109] ، فليس المراد بقوله : (بمثله) آخر فقط ، بل بمثله ثم بمثله
ثم بمثله ، ثم هلم جرا؛ لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته . وقال الحسن البصري : لو جعل
شجر الأرض أقلاما ، وجعل البحر مدادا ، وقال الله : " إن من أمري كذا ، ومن أمري
كذا " لنفد ما في البحور ، وتكسرت الأقلام . وقال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام
يوشك أن ينفد ، فقال الله تعالى : (ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام) أي : لو كان
شجر الأرض أقلاما ، ومع البحر سبعة أبحر ، ما كان لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقه
وعلمه . وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور
كلها ، وقد أنزل الله ذلك : (ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام) الآية . يقول : لو كان
البحر مدادا لكلمات الله والأشجار كلها أقلاما ، لانكسرت الأقلام ، وفني ماء البحر ،
وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء ؛ لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ، ولا يثني
عليه كما ينبغي ، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه . إن ربنا كما يقول ، وفوق ما نقول
.وقد روي أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود ، قال ابن إسحاق : حدثني ابن أبي محمد ، عن
سعيد بن جبيرة أو عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن أحبار يهود قالوا لرسول الله صلى الله

عليه وسلم بالمدينة : يا محمد ، رأيت قولك : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ؟ [الإسراء : 85] ، إيانا تريد أم قومك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كلا " . فقالوا : ألسنت تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنها في علم الله قليل ، وعندكم من ذلك ما يكفيكم " . وأنزل الله فيما سأله عنه من ذلك : (ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام) الآية . وهكذا روي عن عكرمة ، وعطاء بن يسار . وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنية لا مكية ، والمشهور أنها مكية ، والله أعلم . وقوله : (إن الله عزيز حكيم) أي : عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه ، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه ، (حكيم) في خلقه وأمره ، وأقواله وأفعاله ، وشرعه وجميع شؤونه .